

البلاغة والنحو: في معترك التنظير وحدود الممارسة.

Rhetoric and grammar: in the arena of theorizing and limits of Practice.

سامية عليوات *

ميلود شنوفي *

تاريخ النشر: 2024/12/20	تاريخ القبول: 2024/05/25	تاريخ الإرسال: 2023/06/26
-------------------------	--------------------------	---------------------------

الملخص:

عرف النحو والبلاغة عبر العصور تمازجا رغم أسبقية النحو في النشأة، حتى أنهما يشتركان في المبدأ، فكلاهما معياري بدرجة معينة، وإذا كان موضوع النحو سلامة التركيب ومراعاة القاعدة، فإن ذلك لا يختلف عن معيارية البلاغة التي تكون بتقديم خبرات مأخوذة من الجماليات التي يشتمل عليها الأداء من وسائل تصويرية، ومن تركيب الجملة ومن وسائل التحسين المتمثلة في علوم المعاني والبيان والبديع.

هذا المقال يبسط القول في الكيفيات التي تحدّد بها مقولات التركيب البليغ بالنظر إلى خصائص الكلام المنجز وفق الأسلوب الأدبي وموقع المستوى التركيبي (النحوي) في دراسة الأسلوب باعتباره مظهرا بلاغيا لتركيب نحوي.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، النحو، المعاني، شارل بالي، عبد القاهر الجرجاني.

Abstract:

Grammar and rhetoric have been known throughout the ages to mix despite the primacy of grammar in its origin, so that they share the principle, both of them are normative to a certain degree, and if the subject of grammar is the integrity of the structure and observance of the rule, then this does not differ from the normative rhetoric that is by presenting experiences taken from the aesthetics that are included in the performance

* s.aliouat@univ-boumerdes.dz

* m.chenoufi@univ-boumerdes.dz

From pictorial means, from sentence structure, and from the means of improvement represented in the sciences of meanings, eloquence, and the wonderful.

- This article simplifies the way in which the categories of rhetorical composition are determined by looking at the characteristics of speech performed according to the literary style and the location of the (grammatical) level in the study of style as a rhetorical manifestation of a grammatical structure.

Key words: Rhetoric, grammar, meanings, Charles Bally, Abdelkader el Djorjani.

*** **

المؤلف المرسل: سامية عليوات s.aliouat@univ-boumerdes.dz

1- مقدّمة:

يبدو امتزاج النحو بالبلاغة وتفاعلهما في علاقة متأصلة ومتجدّرة، إلّا أنّ ثمة تمييزا واضحا ومهما يظهر في النحو عنه في البلاغة، هو أنّ النحو لا تتم ممارسته بكلّ ما فيه من شؤون تعود على اللّغة، فذلك من شأن النقد اللّغوي وهو الذي يلائم هذه الظاهرة، لارتباطه الوثيق بأداتها الخام، ومادتها الأولية، أي اللّغة. ما يعني أنّ النحو يكتفي بالأمر التي يتّصف بها النّص من ناحية آليات البناء وسلامة التركيب وصحة التّأليف أو ركاكته أو امتناعه، مضافة إلى ذلك جميعا آراء العلماء الأوائل والمتأخرين وحتى المعاصرين في التركيب والتّأليف من ناحية السماح أو المنع، أو القوّة أو الهشاشة والضعف.

بينما تجعل البلاغة من عمود الشعر في عموم موضوعها لها، وهو كما قال المرزوقي: "كانوا يحاولون شرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات- والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النّظم والتّنامها على تخير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشكلة اللفظ للمعنى، وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما، فهذه سبعة أبيات هي عمود الشعر، ولكلّ باب منها معيار"¹.

ولعلّ معظم هذه الأبواب هي فصول في كتب البلاغة، ولذلك لم يبتعد "الأمدي" في كتاب الموازنة، و"القاضي الجرجاني" في كتاب "الوساطة" عن هذا الاتجاه، فكانت هذه الفنون أهم أدواتها النقدية في تعرّضهما لعمود الشعر والموازنة والمقايسة والسرققات².

وقد كانت مباحث المجاز والاستعارة والتشبيه والكناية والجناس والطباق وغيرها من الباحث البلاغية، تتردّد في كتابيهما وتأخذ دورها في العرض والموازنة والمقايسة والتحليل³. يطرح هذا المقال إشكالية محدّدة قوامها: كيف تتجلّى علاقة البلاغة بالنحو عمليا على صعيد الممارسة الإبداعية من جهة وكيف تتمثّلها الدراسات النقدية التراثية والمعاصرة على السواء من جهة أخرى؟

2- مضمار البلاغة من الاختيار إلى التركيب:

يشكّل الاختيار في عرف الدراسات اللسانية المحور الاستبدالي الذي تنتظم فيه العلاقات بين كلّ إشارة من الإشارات الموجودة في المرسلّة الكلامية والإشارات الأخرى التي تنتمي إلى اللّغة نفسها، وهي علاقات تربط في ذهن المتكلّم والسامع بين الإشارات التي تنتمي إلى نمط واحد وتقوم بوظيفة لغوية مشتركة، وهي تستطيع بالتالي أن يحلّ بعضها محلّ بعضها الآخر في سياق السلسلة الكلامية نفسها (وذلك دون أن يطرأ خلل على نظامها النحوي).⁽⁴⁾ حيث تجتمع في المحور الرأسي (العمودي) الكلمات التي تستطيع أن تدخل في علاقات مع غيرها على شكل جمل في المحور الأفقي (التركيبي).

يسمّى المحور الرأسي محور الاستبدال (الاختيار) لأنّ كلّ واحدة من الكلمات فيه يمكن أن تأخذ مكان الأخرى ضمن العلاقة التي تقيمها سابقتها مع أي كلمة في محور التركيب. ولذا، فهو محور افتراضي، يظهر فيه المخزون اللفظي مترافقا ضمنا مع القاعدي، الكامن في قدرة المتكلّم وكفايته اللّغوية.⁽⁵⁾ وهنا ينتهي تحديد بلاغة الأسلوب ومفهومه بوصفه "اختيارا" إلى مجموعة التعريفات التي تردّ الأسلوب طبقا للنموذج التواصلية المعروف في الدراسات اللسانية إلى المرسل، وهي تعريفات تميّز الأساليب بما هي خواصّ للكتابة المحدّدة، المجسّدة للطابع الشخصي للكتابات والكتّاب والممثّلة لملامحهم التعبيرية المميّزة مثلما تعدّ البصمة ممثّلة للشخص، كما تنظر إلى الأسلوب باعتباره

اختيارا لغويا بين بدائل متعدّدة، إذ أنّ الاختيار سرعان ما يحمل طابع صاحبه ويشي بشخصيته ويشير إلى خواصه⁽⁶⁾، وذلك عبر انتقاء يقوم به المنشئ لسمات لغوية بعينها من بين قائمة الاحتمالات المتاحة في اللغة.

تشكّل عملية الاختيار في عرف الدراسات البلاغية مكّونا أساسيا "من مكّونات عملية التشكيل الأسلوبي، وهي -في جوهرها- اختيار شكل تعبير واحد من بين أبدال متاحة، ويكون الاختيار في أبسط حالاته بين بديلين. أمّا في الحالات المعقّدة فيكون الاختيار بين عدد كبير من الأبدال، ويحكم عملية الاختيار عوامل براغماتية يمكن تصنيفها إلى نوعين:

- عامل ذاتي: ويشمل الإثارات اللّغوية للمتكلم، وطابع تفكيره، ومهاراته الأسلوبية.
- عامل موضوعي: ويشمل المقام بأوسع مفهوماته، وهذا العامل مستقلّ عن المتكلم، وإن كان يمارس تأثيره من خلاله، ويشمل العوامل المتعلّقة بالاتصال اللّغوي، مثل شكل اللغة: منطوقة أو مكتوبة، وشكل الخطاب: فردي أم حوار، وجنس القول.. وكلا هذين النوعين من العوامل حاضرا دائما في أثناء إنتاج النص⁽⁷⁾.

وهكذا فإنّ الاختيار يفتح المجال لتجميع مفردات الظاهرة البلاغية وضمّ شتاتها في منظومة بحثية واحدة، ذلك أنّه أمر يفترض أن يقوم به المنشئ على جميع مستويات التواصل بدرجات متفاوتة، لذلك فالاختيار ليس محض اختيار لغوي وحسب، بل هو محكوم من جهة بإمكانات المقال، ومن جهة أخرى بمقتضيات المقام التي تشمل عوامل كثيرة على غرار مصدر الخطاب، والمقصود بالخطاب، وموضوعه، والوسيلة المعتمدة في الإبلاغ، وجنس الخطاب، والعلاقة بين مصدر الخطاب والمقصود به، والحضور الذهني أو العيني للمخاطب والمسرح الذي تجري عليه وقائع الخطاب⁽⁸⁾، ومعنى هذا أنّ الأسلوب يولد نتيجة انتقاء المؤلّف مفردات من إمكانية اللغة الاختيارية التي تربطها علاقة التبادل مع مراعاة مقام الخطاب، وغني عن القول إنّ أغلب اللّغات تملك نظاما لغويا ثريا يمكنه التعبير عن المعاني بفروقه الدقيقة، وتختار لكلّ جانب من جوانب المعنى ما يناسبه من الوسائل اللّغوية التي تؤدّيه وتعبّر عنه⁽⁹⁾.

يلجأ المنشئ للتعبير عن المعنى إلى وسائل متعددة أشهرها: الأداة، الكلمة، الجملة، ثم يأتي بعد ذلك تألف الجمل الذي ينشأ عنه الأسلوب، والاختيار يتحقق في الأداة والكلمة، وأمّا التأليف فيتحقق على مستوى الجملة ويظهر فيها.⁽¹⁰⁾

إنّ الاختيار على صعيد الأداة والكلمة، والتركيب على صعيد الجملة مكوّنان أساسيان للأسلوب لا يقوم إلاّ بهما، وتقع على مسؤولية المنشئ اختيار مفرداته وتشكيل أسلوبه كما يختار المهندس المواد في بنائه حينما يجد نفسه أمام مجموعة من مواد البناء فيختار مادة على أخرى بحسب طبيعة المواقع والمكان والهدف والجانب الوظيفي في البناء، كذلك يجد المؤلف نفسه أمام مجموعة من العناصر اللغوية المختلفة فيختار منها ما يوافق الموضوع والسياق والمتلقي.⁽¹¹⁾

يمكن أن تؤدّي عملية الاختيار بكيفيات أو أساليب متعددة لأنّ الأمر يتوقّف في الأساس على الثروة اللغوية للمنشئ وقدرته على الانتقاء من النظام اللغوي الذي يتيح له إمكانيات واحتمالات متعددة له أن يختار من بينها، وإذا كانت هذه هي حالة المنشئ العادي، فكيف يكون الأمر عند الأديب والمبدع، الأكيد أنّ إمكانياته أكبر وهامش الاختيار عنده أوسع، "إنّ الشاعر الذي يسعى إلى أن يعبر عن رؤيته بأسلوب يختاره يمتلك إمكانيات متعددة ولكن الأمر ينتهي به إلى ما يختار على الرغم من أنّه قادر على أن يأتي بإمكانيات اختيارية أخرى تتفق مع ما اختار دلالياً."⁽¹²⁾ من ذلك ما تتيحه اللغة لأمري القيس كبدايل عن قفا ونبك في قوله:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل بسقط اللوى بين الدخول وحول.⁽¹³⁾

كان يمكنه أن يستبدل "قفا" بكلمات أخرى مرادفة ومتلازمة معها دلالياً، و"نبك" كان يمكن أن يستبدلها أيضاً بكلمات مرادفة لها وهكذا... وذلك بخلاف أسماء الأماكن أو الأشخاص التي لا يمكن استبدالها لأنّها تمس بالتجربة الخاصة للمتكلّم.

يقوم الاختيار على التناسل والتوالد ضمن دائرة معيّنة، ومع ذلك، لا يمكن أن يتمّ بحرية تامة، لأنّه محكوم بقواعد وأسس أخرى تتعلّق بما أسماه "الجرجاني" النظم⁽¹⁴⁾، حيث تغدو عملية الاختيار عملية واعية ومقصودة، وتتمثّل قصديتها على وجه الخصوص في الغاية المتوخاة والقصدية المنوي الوصول إليها، لأنّ عملية الاختيار لا

تعني فقط اختيار الكلمات أو المفردات من إمكانيات اللغة بقدر ما تتصل أيضا بعملية التركيب وتشكيل النسق والسياق.⁽¹⁵⁾

إنّ الاختيار عملية مقصودة باستعمال اللغة استعمالا مقصودا وإراديا، يختلف عن استخدامها بالطريقة العادية التلقائية. إنّ اللغة الأدبية تصدر عن فرد يختار ما يختار بوعي وإدراك، والغاية هي جمالية بالأساس، تسعى إلى تشكيل الإثارة والدهشة عند المتلقي، فالبلاغة أمر يتولّد نتيجة "لانتقاء المؤلف من بين إمكانيات اللغة الاختيارية التي تقوم بينها علاقة التبادل، ممّا يجعل من الميسور ملاحظة الفوارق الأسلوبية في نصوص تنتهي لنفس اللغة عندما تؤدّي جميعها المحتوى الإعلامي ذاته بأشكال مختلفة"⁽¹⁶⁾ ولاشكّ في أنّ الأسلوب عندما يعرف بأنّه اختيار، فإنّ ذلك يتطلّب مراعاة كون الاختيار ينشأ من إمكانات متشابهة، وإنّ ما يختار يوضع في علاقة تقابل مع ما لا يُختار، ولا يتعلّق الأمر بالمتراذفات فقط بل باختيار التعبير أيضا.

3- البلاغة والنحو: مدارات التركيب البليغ:

يتحدّد النحو في المفهوم اللّساني بما يتطابق مع المحور التركيبي الذي تنتظم عليه الوحدات اللّغوية لتؤلّف سلسلة من الكلام في مقاطع وكلمات وجمل.⁽¹⁷⁾

تشكّل على محور التركيب العلاقات بين عناصر استهدفها المتكلم ليركّب بينها وليبني ملفوظه نحويا. وعلى هذا الأساس، يمكننا أن نلاحظ الفرق بين محوري الاختيار (الاستبدال) والتركيب:

- إنّ محور الاستبدال (الاختيار) هو محور الكلمات. وإنّ محور التركيب هو محور الجمل.
- إنّ محور الاستبدال (الاختيار) هو محور الممكنات والافتراضات. وإنّ محور التركيب هو محور اللغة واقعا وإنجازا.⁽¹⁸⁾

وهكذا فإنّ أداء المتكلم وإنجازه اللّغوي يظهران في هذا المحور فعلا، وهذا ما يحقّق الأسلوب، بما هو ظاهرة بلاغية، بوصفه "تركيبا" بناء على التزاوج بين "الاختيار" و"التركيب" وذلك عبر إسقاط محور الاختيار على محور التركيب⁽¹⁹⁾، أي أنّ الأسلوب يتحقّق نتيجة للعلاقات القائمة بين ألفاظ الخطاب ومعانيه لما تبعثه في نفس المتلقي

من ارتياح إزاء ذلك الانسجام، لما تثيره من إحياءات دلالية قائمة على التناسب بين التركيب والاختيار.⁽²⁰⁾ عبر تشكيلات لغوية تتجدّد في كلّ استعمال، وصياغات سياقية ودلالية متعدّدة، ما يؤدي إلى ظهور صور بلاغية مختلفة، وتؤدي العلاقات التركيبية النحوية التي يؤسّسها محور التركيب بين الوحدات اللَّفْظية إلى توليد علاقة شبه بين المسند والمسند إليه ينتج عنها تلازم دلالي.⁽²¹⁾

يقتضي تحديد الأسلوب كظاهرة بلاغية بأنّه تركيب ما يستلزمه الأمر من التنسيق والتأليف بين الكلمات بغرض خلق الخصوصية التعبيرية في كلّ خطاب من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الهدف هو التوافق بين المعاني النفسية المراد التعبير عنها وطريقة الأداء اللّغوي لها عن طريق القيم النحوية التي تراعى خلال تأليف العبارة حتى يكون كلّ وضع علة تقتضي كونه هناك، وحتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح كما يرى ذلك الجرجاني⁽²²⁾، وهذا يعني أنّ الأسلوب ينتج عن إسقاط مبدأ المساواة الموجود في محور الاستبدال (الذي تقوم عليه عملية الانتقاء بين المفردات) على محور النظام أو التركيب (الذي تتمّ فيه عملية التنسيق) بحيث ينتج عن ذلك انسجام بين العلاقات الاستبدالية التي هي غيبية، يتحدّد الحاضر منها بالغائب، والعلاقات التركيبية وهي علاقات حضورية تمثّل سلسلة الكلام البعيدة عن العفوية والاعتباط.⁽²³⁾

إنّ التركيب اختيار مثله مثل الألفاظ، رغم أنّ النحو عملية سابقة على الأسلوب كمظهر بلاغي، وهو مضبوط بقواعد وأصول لا يمكن تجاوزها، إلّا أنّ المتفق عليه أنّ المنشئ يختار التراكيب النحوية التي تكون قواعد صياغتها إجبارية (مثلا جملة استفهامية أو جملة خبرية) على غيرها من التراكيب النحوية الأخرى تحقيقا لمبدأ الاختيار التركيبي الذي ينشئ أسلوبا مختلفا وأثرا بلاغيا مختلفا أيضا.

ينتج الأسلوب من التركيب بالنظر إلى القيمة النحوية، ومنها الموقعية، أي أنّ لكلّ موقع نحوي معنى معيّنًا، فالمبتدأ مثلا قيمته المعنوية تكمن في أنّه محكوم عليه، أي أنّه موضوع كلي تصدر عليه حكما أو تصفه بصفة أو تتحدّث عنه، ومن هنا فلا بدّ أن يكون معلوما لنا، نستطيع وصفه أو الحكم عليه، فإذا كانت لدينا كلمتان تصلح كلّ

منهما أن تكون مبتدأ أو خبراً، معرفتين مثلاً، وأردنا أن نوّلف بينهما، فإنّنا نضع الأكثر وضوحاً فيرفع المبتدأ والأقل وضوحاً كان الخبر.⁽²⁴⁾ على سبيل هذا المثال:

إذا قلنا: خالد أوّل الفائزين، وأردنا أن نوّلف بينهما، فإنّ الأمر سيختلف بحسب درجة الوضوح، فإذا كنت تعرف خالداً قبل ذلك ولكنت لا تعرف هذه الصفة الجديدة التي طرأت عليه فإنّه يقال في تأليف الكلام: خالد أوّل الفائزين.

أمّا إذا كنت تعرف أنّ هناك فائزاً وأنّ تسمية ظهرت، وأنّ هناك فائزاً أوّل، وتودّ أن تعلم من هو، فإنّه يقال لك في هذه الحالة: أوّل الفائزين خالد، وهكذا يمكن الوقوف على بقية المعاني النحوية كالمفعولية والفاعلية والظرفية والحالية، ممّا يؤكّد أنّ "اختيار التركيب" لا يكون عفويّاً أو اعتباطياً، بل هو عملية واعية في إطار قد حدّد بوضوح بقرارات مسبقة، أي أنّ المنشئ يختار من الرصيد اللّغوي الواسع المظاهر، ثم يوزّعها بطريقة معيّنة فيكون بها أثر ذلك الإبداع الكلامي وسببه.

4- النحو في التحليل البلاغي: بلاغة التركيب من الوجهة النحوية:

تشكّل دراسة المستوى التركيبي فصلاً هاماً من فصول البلاغة، وهو يتمثّل في مجموعة المعاني التي تتّصل بالأبواب النحوية كالفاعلية والمفعولية والحالية، وذلك بهدف تحديد القيم البلاغية (الأسلوبية)، لذلك لن نعرض هنا التقسيمات المختلفة للجمل ونظامها ووظائفها والخلافات النحوية واللّسانية حولها، إنّما آلية المعالجة البلاغية (الأسلوبية) للتركيبة بغرض كشف استراتيجيات الخطابات التي يتبنّاها المنشئون.

أ- في النثر: تستهدف دراسة التركيب إبراز المحصول الأسلوبي للماضي المستمرّ، ولصيغ الاحتمال، وللحاضر التاريخي، وصيغة المصدر والماضي المستمرّ للسرد، "وهذه كلّها أشكال أدبية شدّت إليها انتباه اللّسانيين خاصة واللّغة عامة، حين هجرت هذه الأشكال ابتدعت لنفسها متغيّرات أسلوبية ذات محصول فعّال إلى درجة أنّ هذه المتغيّرات تخصّصت في أجناس معيّنة."⁽²⁵⁾

ويشرح "بيير جيرو" كيف أنّ صيغة الفعل الناقص تدلّ على التحذلق في الكلام وتثير الضحك، وأنّ الماضي البعيد فعل قديم، ريفي أو ادعائي، غير أنّ الحاضر التاريخي

يعطي للقصة تشويقاً حاراً، قصيراً وتلقائياً، وأنّ الماضي المستمر للصيغة الإشارية متعدّد القيم، وعلى العموم فهناك " أدب غزير حول كلّ هذه القضايا، كما أنّ هناك دراسة عن القيمة النفسية المنطقية لقيمة الفعل في اللّغة المتكلّمة وأخرى عن الإطناب الشفوي وثالثة عن حذف صيغة المصدر للسرد، ورابعة عن الماضي البعيد عند الروائيين وكتاب المسرح وخامسة عن الماضي المعرف وصيغة الفعل الناقص في المسرح المعاصر." (26)

يمكن أن نتلمّس في بناء الجملة إحدى أكثر القضايا أهميّة في نحو الأسلوب تتعلّق بالمقارنة بين جمل الكتاب والروائيين، حيث يمكن التمييز بين جملة لـ "مارسيل بروست" وأخرى لـ "أندريه جيد" وذلك لكي نحسّ أنّه إذا كانت المفردات هي جسد الأسلوب، فإنّ بناء الجملة هو روحه. (27) وأساس ذلك ليس الملاحظات القاعدية حول الجملة البسيطة والجملة المركّبة، والتجاوز والوصل والتعليق والموازنة، والترابط والانقطاع، وهي العناصر التي تشكل مستوى التركيب في النّص النثري.

ب- في الشعر: تسعى الأسلوبية المعاصرة إلى تمييز موضوعها حسب الشكل التعبيري، إذ لا يمكن دراسة النثر بأدوات دراسة الشعر، وذلك لاختلاف خصوصية التعبير، رغم أنّ الأمر يتعلّق في الأساس بشكل التركيب في التعبير (جمل بسيطة، جمل مركّبة، اسمية، فعلية) وأثر تراكيب تلك الجمل (التقديم والتأخير، الحذف، الالتفات) في معنى النّص، وهذه هي عناصر دراسة المستوى التركيبي في الشعر عادة مشفوعة بأنواع الأساليب والضرورات الشعرية.

1-4- الجملة الاسمية: تتحدّد الجملة الاسمية في النحو بأنّها جملة تتكوّن من مبتدأ وخبر (مسند ومسند إليه) حيث يبدأ الكلام بالمسند إليه (المبتدأ) وبكلام آخر يتممّ معناه هو المسند (الخبر) وقد يضاف إليهما بعض العناصر التي تسعى المتّمات لإكمال معنى الجملة مثل التوكيد أو الجار والمجرور أو ظرفي الزمان والمكان وهي تنقسم إلى:

- الجملة الاسمية العادية: وتتكوّن من مبتدأ وخبر أسند أحدهما إلى الآخر، قد يحافظ فيها الشاعر على تركيب عناصرها وترتيبها فيكون المبتدأ معرّفاً والخبر نكرة وهذا هو المتعارف عليه، وقد يساوي بين طرفي الإسناد في التعريف.

- الجملة الاسمية المنسوخة: وهي التي يتصدرها ناسخ فعلي مثل كان أو حرفي مثل إن.

2-4- الجملة الفعلية: وهي التي صدرها فعل قد يكون ماضيا أو مضارعا أو أمرا، مبنيا للمعلوم أو مبنيا للمجهول متصرفا أو جامدا، تاما أو ناقصا، مسبوقا بحرف أو غير مسبوق وهي أنماط منها: الجملة الفعلية المثبتة والجملة الفعلية المؤكدة والجملة الفعلية المنفية.

3-4- التقديم والتأخير: الأصل في ترتيب التركيب في الجملة الفعلية وفي الجملة الاسمية أن يكون المسند قبل المسند إليه أي تسبق الفعل على الفاعل والمسند إليه على المسند أي المبتدأ على الخبر، يقول ابن عقيل: "الأصل تقديم المبتدأ وتأخير الخبر، وذلك لأنّ الخبر وصف للمعنى في المبتدأ فاستحق التأخير كالوصف." (28)

لكنّ التعبير الشعري يخرج عن هذا الأصل بغرض خلق آثار جمالية بالعدول عن نظام ترتيب التركيب، وإمعانا في تأكيد العبارة وقوّتها، لذلك يكتسب التقديم والتأخير قيمته التعبيرية من خلال أثره في تشكيل النّص بعيدا عن مواضع التقديم والتأخير بصيغة الوجوب، ومهمة المحلّل الأسلوبي أن يكشف الآثار الجمالية للتقديم والتأخير في تشكيل القيمة الأسلوبية للنّص على صعيد التركيب.

4-4- الحذف: الحذف ظاهرة لغوية أسلوبية تجسّد خروجاً عن المستوى التعبيري العادي طلبا لشعيرة التعبير من منطلق أنّ "الصمت أبلغ" أي أنّ الحذف أحيانا يكون أوضح وأبلغ من الذّكر بفعل استثارته انتباه المتلقّي وتنشيط خياله لمعرفة المحذوف. إنّهُ يقوّي العبارة ويغني المعنى ويزيد من جمالية الإبداع الكلامي.

يشمل الحذف جلّ عناصر التركيب: المفردة سواء أكانت مسندا أم مسندا إليه، فعلا أم اسما، التركيب ويتساوى في ذلك حذف الجملة الفعلية والجار والمجرور وحذف أكثر من جملة إمعانا في الإيجاز غير المخلّ بالمعنى ممّا يفتح آفاق القراءة الشعيرة على احتمالات ممكنة للمعنى تتعدّد بتعدّد القراءات وقد تختلف مع كلّ قراءة جديدة.

4-5- الأساليب: تحلل البلاغة طرائق التعبير من حيث كثافة نوع الأسلوب المستخدم (خبري، إنشائي) وأثر ذلك في تشكيل البعد الجمالي في التعبير الذي بمقدوره شدّ انتباه القارئ أو المتلقي إلى شعرية الأسلوب سواء أكان خبريا أم إنشائيا.

فبالأسلوب الخبري هو كلّ أسلوب "احتمل الصدق والكذب".⁽²⁹⁾

والإنشائي هو "كل كلام لا يحتمل الصدق والكذب لذاته".⁽³⁰⁾

هكذا ينشئ المتكلم بواسطة الأسلوب الإنشائي أمرا أو نهيا أو استفهاما أو نداء أو تعجبا أو تمنيا وهذه هي الأساليب الإنشائية الطلبية وغير الطلبية التي يجري البحث فيها لكشف الصور التي نقل بها الشاعر أفكاره ومشاعره، وإنّ طغيان أحد هذه الأساليب أو بعضها في التركيب الشعري يشي بالحالة الشعورية وبطبيعة التجربة الشعرية لدى الشاعر، لذلك تعتمد الأسلوبية مرّة أخرى على أداة الإحصاء في رصد نوع الأساليب المستخدمة لترجمة نفسية الشاعر أو نسبة النص إلى صاحبه بناء على تواتر أسلوب ما قد شاع استخدامه عند الشاعر.

5- العدول الدلالي: مضمار بلاغة الخطاب:

مما لا شكّ فيه أنّ تعدّد الدراسات البلاغية سواء التراثية أو المعاصرة واختلاف اتجاهاتها يرتدّ بالأساس إلى اختلاف الموقع الذي تنطلق منه أو الزاوية التي تنظر منها إلى الأسلوب المؤلّد للأثر البلاغي، وبالتالي الرؤية التي تحملها.

تكاد جلّ التيارات التي تعتمد الخطاب أساسا تعريفا للأسلوب تصب في مقياس تنظيري هو مفهوم العدول أو الانزياح، وهو من المدلولات الثنائية المقتضية لنقائضها بالضرورة، فكما لا تتصوّر "الكبير" إلّا في طباقه مع "الصغير"، فكذلك لا تتصوّر انزياحا إلّا عن شيء ما.⁽³¹⁾

لعلّ تعريف الأسلوب بأنّه عدول هو من أكثر التعريفات شهرة وانتشارا، هكذا يتّخذ "سبيتزر" من مفهوم العدول "مقياسا لتحديد الخاصية الأسلوبية عموما ومسبارا لتقدير كثافة عمقها ودرجة نجاعتها".⁽³²⁾

ويرى "جورج مونان" أنّ "ثمة أسلوب بالنسبة إلى بعضهم، عندما تحتوي العبارة على عدول يخرج بها عن المعيار. فقولنا: البحر أزرق. لا يتجاوز كلام كلّ الناس. إنّه الدرجة الحيادية، أو الدرجة صفر للتعبير، ولكن أن نبتدع كما ابتدع "هومير" فنقول: البحر بنفسجي. أو البحر خمري، فإنّ هذا يمثّل حدثاً أسلوبياً.⁽³³⁾

بينما يرتبط مفهوم الأسلوب عند "أوستن وارين" و"رينه ويليك" "بمجموع المفارقات التي نلاحظها بين نظام التركيب اللّغوي للخطاب الأدبي وغيره من الأنظمة، وهي مفارقات تنطوي على انحرافات ومجازيات بها يحصل الانطباع الجمالي."⁽³⁴⁾ وهو تعريف يكاد يتطابق وقع الحافر على الحافر مع تعريف "ماروزو" للأسلوب بأنّه "اختيار الكاتب لما من شأنه أن يخرج بالعبارة عن حيادها وينقلها من درجتها الصفر إلى خطاب يتميز بنفسه.⁽³⁵⁾

وهكذا أيضاً ينظر "تزيطان تودوروف" إلى الأسلوب اعتماداً على مبدأ العدول فيقول بأنّه "لحن مبرّر ما كان يوجد لو أنّ اللّغة الأدبية كانت تطبيقاً كلياً للأشكال النحوية الأولى."⁽³⁶⁾

ولا يندّد تعريف "ريفاتير" للظاهرة الأسلوبية عن مجموع التعريفات المستندة إلى العدول، فالأسلوب عنده ليس إلا "انزياحاً عن النمط التعبيري المتواضع عليه، ويدقّق مفهوم العدول بأنّه يكون خرقاً للقواعد حيناً، ولجوءاً إلى ما ندر من الصيغ حيناً آخر. فأما في حالته الأولى فهو من مشمولات علم البلاغة، فيقتضي إذن تقييماً بالاعتماد على أحكام معيارية، وأما في صورته الثانية فالبحث فيه من مقتضيات اللسانيات عامة والأسلوبية خاصة."⁽³⁷⁾

يرتبط العدول بالاختيار ارتباطاً وثيقاً، لأنّ الاختيار يقوم على إمكانيات متعدّدة تفتح المجال لحدوث العدول وتحقّقه وتجلّيه، إذ أنّ الاختيار يمكن أن يبرّر بالمقارنة مع حالة الحياد أو الأسلوب المحايد أو ما يعرف بالدرجة صفر، وبذلك فإنّ الاختيار ينفّث على الانزياح بشكل وثيق.

يتجسّد انتشار مفهوم الأسلوب على أنّه عدول بشكل كبير في معالجة النقاد المختلفة له، فقد وقف بعضهم على هذا التعريف مواقف متفاوتة، وقيّمه بعضهم الآخر تقييماً إيجابياً، في حين قيّمه آخرون تقييماً سلبياً، فقد شاعت عبارة "بول فاليري" بأنّ الأسلوب في جوهره عدول عن قاعدة، وشاركه في هذا الرأي نقاد كثيرون دعوا إلى ضرورة أن يعتاد الباحث على القاعدة حتى يتمكّن من اكتشاف أشكال العدول المنفرعة عنها.

6- خاتمة:

لم تعد قواعد النحو، على الأقلّ منذ عبد القاهر الجرجاني، مجرد حافة مقصورة على الإعراب كعهدنا بها قبله، وإنّما أضحت من وسائل التصوير والصياغة، وهنا تظهر لنا مفارقة وموافقة بين القدماء ممثّلين بشكل خاص في "عبد القاهر الجرجاني" وبين الأسلوبين المحدثين، ذلك أنّ كلا منهما نظر إلى النحو باعتباره عملية أساسية في الرسالة الإبداعية أو الرسالة الإخبارية، لكن البلاغة نظرت إليه باعتباره عملية سابقة وإن كانت ضرورية في تركيب الأسلوب، في حين نظر إليه "عبد القاهر" باعتباره داخلاً في عملية الصياغة ذاتها، وباعتباره مظهر فنية المبدع ومقدرته على الإنشاء، وهو ينظر إلى النحو بمعناه العام، أي بمعنى العلاقات القائمة بين المعاني، وهي علاقات ترتيب في النفس قبل أن تنتقل إلى اللفظ ذاته. في حين تنظر البلاغة إلى النحو بمعناه الخاص، أي بمعنى هذه القواعد الصارمة التي تنظم اللّغة، وتجعل لها كيانه متميّزاً بصفاته وخصائصه، لكن التلازم ظلّ قائماً، ومبدأ ربط النحو بالبلاغة في الدراسات البلاغية القديمة لم يفتأ يترسّخ في البلاغة إلى الدرجة التي يستحيل معها الفصل بين المبحثين إلّا منهجياً.

وعلى العموم فيقدر ما تحتاج البلاغة من حيث هي نظام معياري ضمن اللّغة إلى النحو من أجل وجودها كتجاوز، يحتاج التركيب إلى البلاغة من أجل أن لا يكون في درجة التعبير صفراً للخطاب التي تفقده كلّ قيمة جمالية.

7. الهوامش

- ¹ - المرزوقي أبو علي، شرح ديوان الحماسة، ج 1، ص 9.
- ² - أحمد مطلوب، النقد البلاغي، مجلة المجمع العلمي العراقي، العدد 2 و3، يونيو 1987، ص 199.
- ³ - المرجع نفسه، ص 199.
- ⁴ - جورج مولينييه، الأسلوبية، تر: بسام بركة، ط 1، المؤسسة الجامعي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1999، ص 9.
- ⁵ - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ط 1، مركز الإنماء العربي، بيروت 2002، ص 82.
- ⁶ - ينظر: صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، د.ط، أفريقيا الشرق، المغرب 2002، ص 88-89.
- ⁷ - سعد مصلوح، في النص الأدبي، ط 3، عالم الكتب، القاهرة 2002، ص 61.
- ⁸ - المرجع نفسه، ص 26.
- ⁹ - ينظر: أيوب جرجيس العطية، الأسلوبية في النقد العربي المعاصر، ط 1، عالم الكتب الحديث، الأردن 2014، ص 81.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹¹ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹² - موسى سامح راجعة، الأسلوبية، ط 1، دار الكندي، إربد/ الأردن، 2003، ص 27.
- ¹³ - امرأة القيس، ديوان امرئ القيس، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة 1996، ص 72.
- ¹⁴ - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: ه. ريتز، دار المسيرة، بيروت 1979.
- ¹⁵ - موسى سامح راجعة، الأسلوبية، مرجع سابق، ص 27.
- ¹⁶ - المرجع نفسه، ص 29.
- ¹⁷ - ينظر: جورج مولينييه، الأسلوبية، مرجع سابق، ص 8.
- ¹⁸ - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 82.
- ¹⁹ - ينظر: أيوب جرجيس العطية، الأسلوبية في النقد العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 83.
- ²⁰ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²¹ - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 83.
- ²² - ينظر: عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص 40.
- ²³ - جورج مولينييه، الأسلوبية، مرجع سابق، ص 10.
- ²⁴ - ينظر: أيوب جرجيس العطية، الأسلوبية في النقد العربي المعاصر، مرجع سابق، ص 84.
- ²⁵ - بيبير جيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، ط 2، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، 2004، ص 62.
- ²⁶ - المرجع نفسه، ص 63.
- ²⁷ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²⁸ - ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد معي الدين عبد الحميد، ج 1، المكتبة العصرية، لبنان 2007، ص 213.

- ²⁹ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص 303.
- ³⁰ - بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، ط3، دار الرفاعي، السعودية 1988، مادة الإنشاء.
- ³¹ - ينظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1982، ص 97-98.
- ³² - المرجع نفسه، ص 102.
- ³³ - منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، مرجع سابق، ص 76.
- ³⁴ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ³⁵ - المرجع نفسه، ص 103.
- ³⁶ - المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ³⁷ - عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، مرجع سابق، ص 103.

8- قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، ج1، المكتبة العصرية، لبنان 2007.
- 2- أيوب جرجيس العطية، الأسلوبية في النقد العربي المعاصر، ط1، عالم الكتب الحديث، الأردن، 2014.
- 3- بدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، ط3، دار الرفاعي، السعودية 1988.
- 4- بدير جيرو، الأسلوبية، تر: منذر عياشي، ط2، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، 2004.
- 5- جورج مولينيه، الأسلوبية، تر: بسام بركة، ط1، المؤسسة الجامعي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1999.
- 6- سعد مصلوح، في النص الأدبي، ط3، عالم الكتب، القاهرة، 2002.
- 7- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، ط2، الدار العربية للكتاب، ليبيا، 1982.
- 8- موسى سامح رجاجة، الأسلوبية، ط1، دار الكندي، إربد/الأردن، 2003.
- 9- عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تح: ه. ريتز، دار المسيرة، بيروت، 1979.
- 10- صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، د.ط، أفريقيا الشرق، المغرب، 2002.
- 11- منذر عياشي، الأسلوبية وتحليل الخطاب، ط1، مركز الإنماء العربي، بيروت، 2002.